الفصل الثالث

دلائل عظمة القرآن

القرآن أعظم كتاب رأته عين، وسمعته أذن وتألق بتلاوته لسان، وازداد به يقين وإيمان، وطاب به قلب وجنان.

القرآن هو قول الله وحكمه وأمره، هو رسالة الله إلى خلقه، تكلم الله به حقيقة كما أراد، وحُق لكلام العظيم أن يكون عظيمًا، فهو فوق كل كلام وأعلى من كل بيان، وأظهر من كل حجة أو برهان، هو الحق من الحق إلى الخلق، هو النور من الله والهداية منه لمن أراد الهدى.

إن عظمة القرآن ظاهرة قاهرة، واضحة بينة يدركها كل من كان له عقل وفهم، وإن أبلغ ما نصف به القرآن أن نقول عنه كلام الله! إنه كلام العليم الخبير، كلام الملك الحق المبين، وهل يسوغ لذي عقل أن يقارن بين كلام الخالق وكلام المخلوق؟! بين كلام رب العالمين وكلام من خلق من طين؟! بين كلام العليم الحكيم وكلام الظلوم الجهول؟!

إن بلاغة القرآن تتوارى أمامها كل بلاغة، وتذوب عندها كل فصاحة، ويعجز كل بيان، فلقد أوضح الحق وجلاه، واشتمل على العلم وحواه، ورفع الصدق وأعلاه، وأزهق الباطل وأراده، وأذهب الطغيان وواراه. زلزلت آياته عروش الوثنية، ودمغدت بيناته أساطين الجاهلية، وغرست كلماته الحق بالحجة القوية، واستقامت على هداه الأنفس الزكية، وطابت بذكره القلوب التقية، وارتقت به إلى درجات الجنة العلية، ولعظمة القرآن دلائل نذكر شيئًا منها تذكيرًا للعاقل وتنبيهًا للغافل، والله ربي هو المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا به.

من دلائل عظمة القرآن

أولًا - عظمة من تكلم به سبحانه:

إنها كلمة مجلجة مزلزلة، مهيبة عظيمة حينما نقول: هذا كلام الله!! إن كل الكلام يعظم وينبل بقدر عظمة من تكّلم به ولذا فإن القرآن أعظم الكلام لأنه كلام الله الذي هو أعظم من كل عظيم وأكبر من كل كبير وأجل من كل جليل، بل هو الذي خلق كل متكلم وكلامه وكل بليغ وبلاغته وكلام الله تعالى صفته ليس مخلوقًا ككلام البشر فكلام المخلوق ضعيف كضعفه قاصر كقصوره ناقص كنقصه.

أما كلام الله فكماله بكمال الله، وعظمته بعظمته سبحانه وبحمده قال الله تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ [الكهف: ١٠٩] وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [لقمان: ٢٧].

يقول الحافظ ابن كثير رحمه الله: «يقول الله تعالى مخبرًا عن عظمته وكبريائه وجلاله وأسمائه الحسنى وصفاته العلى وكلماته التامة التي لا يحيط بها أحد ولا اطلاع لبشر على كنهها وإحصائها كما قال سيد البشر خاتم الرسل: «**لا أحصي ثناءًا عليك أنت كما أثنيت على نفسك**»[(١)].

فقال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ﴾ أي ولو أن جميع أشجار الأرض جعلت أقلامًا وجعل البحر مدادًا وأمده سبعة أبحر معه فكتبت بها كلمات الله تعالى الدالة على عظمته وصفته وجلاله لتكسرت الأقلام ونفد ماء البحر ولو جاء أمثالها مددًا وإنما ذكرت السبعة على وجه المبالغة، ولم يرد الحصر ولا أن ثمة سبعة أبحر موجودة

(١) رواه مسلم برقم [٤٨٦]، وأبو داود [٨٤٢]، والترمذي [٣٤٩٣] وغيرهم.

محيطة بالعالم كما يقوله من تلقاه من الإسرائيليات التي لا تصدق ولا تكذب، بل كما في الآيات الأخرى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ فليس المراد بقوله بمثله آخر فقط، بل بمثله ثم بمثله ثم بمثله ثم هلم جرّا لأنه حصر لآيات الله.

قال الحسن البصري: «لو جعل شجر الأرض أقلامًا وجعل البحر مدادًا وقال الله تعالى: إن من أمري كذا ومن أمري كذا لنفد ماء البحر وتكسرت الأقلام».

وقال قتادة: «قال المشركون إنما هذا كلام يوشك أن ينفد فقال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ ﴾ ومع البحر سبعة أبحر ما كانت لتنفد عجائب ربي وحكمته وخلقه وعلمه».

وقال الربيع بن أنس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن مثل علم العباد كلهم في علم الله كقطرة من ماء البحور كلها وقد أنزل الله ذلك ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ ﴾ الآية يقول: لو كان البحر مدادًا لكمات الله والأشجار كلها أقلامًا لانكسرت الأقلام وفني ماء البحر وبقيت كلمات الله قائمة لا يفنيها شيء لأن أحدًا لا يستطيع أن يقدره قدره ولا يثني عليه كما ينبغي حتى يكون هو الذي يثني على نفسه إن ربنا كما يقول وفوق ما نقول»[(١)].

ويقول حافظ أحمد حكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والمقصود أن كلمات الله باقية لا تنفد أبدًا، تامة لا تنقص أبدًا وذلك لأن كلامه صفته، وليس من صفاته شيءٌ ينفد ولذا أخبرنا تعالى أن جميع أشجار الأرض لو كانت أقلامًا والبحار أضعافها مدادًا يكتب بها كلماته لنفدت كلها وكلماته باقية لا تنفد وذلك لأن الأشجار والبحار مخلوقة والمخلوقات من لازمها الفناء وكلمات الله صفته وليس من صفات الله شيء يفنى، بل هو الباقي بأسمائه وصفاته أزلًا وأبدًا ﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ [القصص: ٨٨][(٢)].

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٦/ ٢٠٢).

(٢) «معارج القبول بشرح سلم الوصول» (١/ ٢٥٣).

فالقرآن هو كلام الله الذي أنزله ليكون هداية للخلق كافة قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ [طه: ١١٣]، وقال تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ [النحل: ٨٩]، وقال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص: ٢٩]، وقال سبحانه: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٦] والله إنه وصف عظيم مهيب وصف جليل كريم كبير القرآن كلام الله!! فيا له من جلال ويا لها من عظمة لا منتهى لها!!

يقول أحد الفضلاء: «هل طرق المسامع مثل القرآن بيانًا وجاذبية؟! هل وقع في القلوب مثل القرآن يقينًا وهدى؟! هل قرأت العيون مثل القرآن جمالًا وإبداعًا؟! هل ذاقت الأرواح مثل القرآن حلاوة وطلاقة؟! هل هز منابر الدنيا مثل القرآن تأثيرًا وتمجيدًا؟! هل جلجل في النوادي مثل القرآن براءة وإشراقًا؟!

أيها المتكلمون، بكل لغة المتحدثون بكل لهجة اجمعوا أروع القصائد وأحلى الملاحم وأبلغ الخطب وأحسن القصص وأجمل الكلمات ليأتي القرآن بنبعه المتدفق ونوره الوّهاج وحسنه البديع وتأثيره العجيب فإذا القصائد والملاحم والخطب والقصص والكلمات هباءٌ منثور وعملٌ مبتور لا قيمة ولا روعة ولا حسن ولا جمال، لأن من تكلم بالقرآن هو الذي خلق من تكلم بالخطبة، ولأن الذي أحكم القرآن هو الذي أوجد كاتب القصة فكيف نجعل كلام المخلوق ككلام الخالق وكتاب الناقص مثل كتاب الكامل وقول الغني القوي كقول العاجز الهزيل الضعيف الفقير»[(١)].

وجديرٌ أن نذكر في هذا الصدد قول الطحاوي رَحِمَهُ اللهُ في عقيدته حيث يقول: «مذهب أهل السنة وهم السلف الصالح أن القرآن كلام الله منه بدأ بلا كيفية قولًا

(١) «العظمة» للقرني ص(٢٦٥-٢٦٧) ط: دار ابن حزم.

وأنزله على رسوله وحيًا، وصدقه المؤمنون على ذلك حقًا وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة ليس بمخلوق ككلام البرية فمن سمعه فزعم أنه كلام البشر فقد كفر وقد ذمه الله وعابه وأوعده بسقر حيث قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾ [المدثر: ٢٦]، فلما أوعد الله تعالى بسقر لمن قال إن هذا إلا قول البشر علمنا وأيقنا أنه كلام خالق البشر ولا يشبه كلام البشر»[(١)]..

قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [سبأ: ٢٣].

﴿ فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ ﴾: أي زال الفزع عنها.

وقال ابن جرير: قال بعضهم: الذين فزع عن قلوبهم الملائكة قالوا وإنما فزع عن قلوبهم من غشية تصيبهم عند سماعهم كلام الله بالوحي.

وقال أبو حيان: «تظاهرت الأحاديث عن رسول الله أن قوله: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ ﴾ إنما هي في الملائكة إذا سمعت الوحي إلى جبريل يأمره الله به سمعت كجر سلسلة الحديد على الصفوان فتفزع عند ذلك تعظيمًا وهيبة»[(٢)].

ثانيًا- عظمة من نزل به من عند الله:

قال الله جلا وعلا: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٥]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ١٠٢] والروح الأمين وروح القدس هو أفضل الملائكة وخيرهم وأكرمهم على الله عَزَّ وَجَلَّ وهو جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ كما قال ربنا سبحانه: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ

(١) «شرح الطحاوية» لابن أبي العز ص[١٦٨] ط: المكتب الإسلامي.

(٢) «فتح المجيد» (١/ ٣٤٢).

فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٩٧]، فجبريل هو سيد الملائكة وهو المطاع فيهم وهو قوى على تنفيذ ما أمره الله به، قوى على إيصال الوحي إلى الرسول ﷺ ، قوى في منع الشياطين من اختلاس الوحي، قوى في منعهم من التخليط والتعريف.

وجبريل عليه السلام هو رسول الله من الملائكة الذي اصطفاه الله تعالى على سائر الملائكة كما اصطفى رسولنا محمد ﷺ على سائر البشر وقد وصفه ربنا سبحانه في كتابه بأوصاف كريمة شريفة عظيمة وهذه الأوصاف تجدها في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾[التكوير: ١٩-٢١] وكذلك في قوله سبحانه: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴾[النجم: ٥-٦].

وهذه الأوصاف كما يلي:

١- هو رسول أي بين الله تعالى وأنبيائه ورسله.

٢- كريم أي ملك شريف حسن الخلق حسن المنظر.

٣- قوة أي له قوة عظيمة جدًا كقوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾.

٤- ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ أي له مكانة عند الله عز وجل ومنزلة عالية رفيعة.

٥- ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ﴾ أي في السموات له وجاهة وهو مسموع القول مطاع في الملأ الأعلى.

٦- ﴿أَمِينٍ﴾ وصفه الله بالأمانة وهذه تزكية عظيمة جدًا أن يزكي الله عبده ورسوله الملكي جبريل بهذه الأمانة.

ومن أوصاف جبريل العظيمة أن الله تعالى خلق له ستمائة جناح، ومن أوصاف الملائكة أن لهم أجنحة كما قال الله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾[فاطر: ١]، أي منهم

من له جناحان، ومنهم من له ثلاثة، ومنهم من له أربعة، ومنهم من له أكثر من ذلك، وجبريل عليه السلام خلقه الله تعالى وجعل له ستمائة جناح كما روى البخاري عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى جبريل له ستمائة جناح(١).

وروى البخاري كذلك من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: «من زعم أن محمدًا رأى ربه فقد أعظم ولكن قد رأى جبريل في صورته وخلقه سادًا ما بين الأفق»(٢).

ومما يدل على شرف جبريل عليه السلام أن الله تعالى خصَّه بأشرف وظيفة وهي السفارة بينه تعالى وبين رسله عليهم السلام فكان ينزل بالوحي إليهم، وسمى الله جبريل الروح الأمين كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾[الشعراء: ١٩٢-١٩٤]، وسماه الله تعالى روحًا وأضافه الى نفسه سبحانه في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧].

قال السعدي: «روحنا» هو جبريل عليه السلام: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ أي كاملًا من الرجال في صورة جميلة وهيئة حسنة لا عيب فيه ولا نقص لكونها لا تحتمل رؤيته على ما هو عليه(٣)، وسماه الله تعالى روح القدس في غير آية منها وقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾[البقرة: ٨٧]، أي قواه الله تعالى بروح القدس وهو جبريل عليه السلام وتأييده بروح القدس يدلهم على صدق عيسى فيما جاءهم به.

---

(١) رواه البخاري برقم [٣٢٣٢].

(٢) رواه البخاري برقم [٣٢٣٤] وقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم جبريل مرة أخرى عند سدرة المنتهى وهاتان هما المرتان اللتان رأى فيهما رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم جبريل على صورته الحقيقية وقد كان يأتيه في صورة رحية بن خليفة الكلبي وأتاه في صورة أعرابي كما في حديث عمر بن الخطاب المشهور وفي آخره إنه أتاكم يعلمكم دينكم.

(٣) «تفسير السعدي» ص (٥٦٦) ط: دار ابن الجوزي.

وقد ثبت في صحيح البخاري أن النبي ﷺ دعا لحسان بن ثابت الذي كان يدافع وينافح ويكافح المشركين ويمحوهم مدافعًا عن النبي ﷺ دعا له النبي ﷺ فقال: «**اللهم أيده بروح القدس**»(١).

وكذلك روى البخاري عن البراء رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال لحسان: «**اهجهم. أو قال هاجهم وجبريل معك**»(٢).

ومما يدلك كذلك على فضل جبريل على سائر الملائكة أن الله تعالى قال: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٞ﴾[التحريم: ٨٧]، فجبريل من الملائكة أفرده الله بالذكر وقدمه عليهم لشرفه عليهم وفضله العظيم كرمه الله وشرفه به على سائر الملائكة.

قال الشيخ صالح آل الشيخ حفظه الله: الروح الأمين هو جبريل عليه السلام وسُمِّي روحًا لفضله وتميُّزه عن الملائكة ولأنه ينزل بالروح من أمر الله عز وجل وهو الوحي. وسمِّي بالأمين أو نعته الله بالأمين في قوله ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ﴾[الشعراء: ١٩٣-١٩٤] لأنه مؤتمن على أعظم ما يؤتمن عليه وهو كلام الله عز وجل ووحيه في سماواته(٣).

ثالثًا- عظمة من أُنزل عليه القرآن

حين أراد الله العَليم الحكيم أن ينزل إلى خلقه أعظم كتبه اختار الله تلك المهمة العظيمة الكبيرة أعظم ملك ليتنزل بهذا القرآن العظيم على قلب أعظم البشر وسيد الخلق كافة رسول الله محمد ﷺ واختار مكة التي هي أطهر بقعة في الأرض وأقدس البلاد وأعظمها لتكون مهبط الوحي ومكانًا لنزول القرآن ومن بعدها المدينة النبوية،

---

(١) رواه البخاري برقم [٦١٥٢].

(٢) رواه البخاري برقم [٦١٥٣].

(٣) «جامع شروح الطحاوية» (١/ ٧٢٤ط) دار: ابن الجوزي

وكذلك اختار الله من الزمان أشرف زمان وأكرمه وهو ليلة القدر من شهر رمضان، فأحاط الله كتابه العظيم بهالة من العظمة والجلال لم ولن تكون لكتاب غير القرآن، ودعونا نتكلم عن عظمة المصطفي ﷺ فو الله ما خلق الله وما ذرأ وما برأ نفسًا أكرم عليه من رسول الله محمد ﷺ هذا هو الرسول الذي حقق أكمل العبودية لله جل جلاله. هذا هو المصطفي خير من وحَّد الله وعبد الله. خير لسان دعا إلى الله لسانه وخير قلبه نبض بحب الله قلب وخير جبهة سجدت لله جبهة نبيه ومصطفاه. هذا هو رسول الله الصدق في بهائه، والنبل والكمال في صفائه، والشمس التي بددت ظلام الكفر والجهل، والنور الذي اهتدى به السائرون والقدوة الصادقة الكاملة التي اقتدي بها المفلحون المهتدون هذا هو رسول الله محمد الذي نال قمة العظمة البشرية هذا هو النبي الإمام الأعظم الذي أرسل إلى الخلق كافة قال الله تعالى ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] وقال الله سبحانه :﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

بل لقد أخذ الله العهد والميثاق على كل الأنبياء، بلا استثناء ، أنه إذا بعث فيهم محمد ﷺ وأدرك أحدهم زمانه أن يؤمن به ويتبعه، قال الله جَلَّ وَعَلا: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **« فضلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم، ونصرتُ بالرعب وأحلت لي الغنائم، وجُعلت لي الأرض طهورًا ومسجدًا، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون»**(١).

(١) رواه البخاري برقم [٢٩٧٧]، ومسلم برقم [٥٣٢].

وتأمل كيف شرف الله رسوله في خطابه حيث نادى الله الأنبياء بأسمائهم «يا آدم» «يا نوح»، ولما وجه رب الأرباب الخطاب إلى رسوله ومصطفاه قال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾، ولم يرد في القرآن قط يا محمد.

وكذلك فإن ربنا تبارك وتعالى زكى رسوله ومدحه وأثنى عليه كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم: ٣-٥].

وكذلك شرح الله له صدره ووضع عنه وزره، ورفع له ذكره وجعل الذل والصغار على من خالف أمره، فقال الله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ١-٤].

قال قتادة: «رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة فليس خطيب ولا متشهد ولا صاحب صلاة إلا ينادي بها أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله».

ومما يشير الى عظمة هذا النبي الكريم وفضله العظيم أن جعل الله نسبه أشرف نسب وبيته أطهر بيت، فهو خلاصة الطهر في هذا النسب الزكي الكريم كما روى مسلم والترمذي عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشًا من كنانة واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم**»(١).

وهو سيد الأولين والآخرين وصاحب الشفاعة العظمى يوم الدين وأول من ينشق عنه القبر وأول من يدخل الجنة ﷺ روي مسلم وغيره من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال «**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر وأول شافع وأول مشفع**»(٢) قال الإمام النووي رحمه الله: قال الهروي:

---

(١) رواه مسلم برقم [٢٢٧٨]، وأبو داود برقم [٤٦٧٣].

(٢) رواه مسلم برقم [٢٢٧٦]، والترمذي برقم [٣٦١٥].

السيد هو الذي يفوق قومه في الخير وقال غيره: هو الذي يفزع إليه في النوائب والشدائد فيقوم بأمرهم ويتحمل عنهم مكارههم ويدفعها عنهم. وأما قوله ﷺ: «**يوم القيامة**» مع أنه سيدهم في الدنيا والآخرة، فسبب التقيد أن في يوم القيامة يظهر سؤدده لكل أحد ولا يبقي منازع ولا معاند ونحوه بخلاف الدنيا فقد نازعه ذلك فيها ملوك الكفر وزعماء المشركين، وهذا التقييد قريب من معنى قوله تعالى «**لمن الملك اليوم لله الواحد القهار**» مع أن الملك لله سبحانه قبل ذلك لكن كان في الدنيا من يدعى الملك أو من يضاف إليه مجازًا فانقطع كل ذلك في الآخرة قال العلماء: وقوله ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم**» لم يقله فخرًا، بل صرح بنفي الفخر في غير مسلم في الحديث المشهور «**أنا سيد ولد آدم ولا فخر**» إنما قاله لوجهين:

أحدهما- امتثال قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾.

والثاني- أنه من البيان الذي يجب عليه تبليغه إلى أمته ليعرفوه ويعتقدوه ويعملوا بمقتضاه ويوقروه ﷺ بما تقتضي مرتبته كما أمرهم الله تعالى، وهذا الحديث دليل لتفضيله ﷺ على الخلق كلهم لأن مذهب أهل السنة أن الآدميين أفضل من الملائكة وهو ﷺ أفضل الآدميين وغيرهم[(١)].

وعن أنس رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «**أنا أكثر الأنبياء تبعًا يوم القيامة وأنا أول من يقرع باب الجنة**»[(٢)] وعند مسلم رضي الله عنه أيضًا أن النبي ﷺ قال: «**آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح فيقول الخازن من أنت؟ فأقول: محمد**» فيقول محمد: بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك»[(٣)] بل إن ربنا جل جلاله كرم رسوله محمدًا ﷺ وجعل مكانه في الجنة أعلى مكان وأعظم وأقرب مكان إلى

---

(١) «شرح النووي على مسلم» (٨/ ٤٢).

(٢) رواه مسلم برقم [١٩٦].

(٣) رواه مسلم برقم [١٩٧].

عرش الرحمن حيث آتى الله رسوله الوسيلة وهي أعلى مكانة ومنزلة في الجنة لا يستحقها ولا ينالها ولا تنبغي إلا لعبدٍ من عباد الله وهو المصطفى رسول الله محمد ﷺ والحديث في ذلك رواه البخاري وغيره من حديث جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدًا الوسيلة والفضيلة وابعثه اللهم مقامًا محمودًا الذي وعدته حلت له شفاعتي يوم القيامة**»(١) وعند مسلم وغيره من حديث عبد الله بن عمرو أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول المؤذن ثم صلوا عليَّ فإنه من صلى عليَّ صلاة صلى الله عليه بها عشرًا، ثم سلوا الله لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله فأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل الله لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة**»(٢).

وهو بأبي وأمي وروحي ونفسي ﷺ خاتم الأنبياء ليس بعده نبي فهو مسك ختامهم ولبنة تمامهم كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «**مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بني بيتًا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زواية من زواياه، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة؟ قال ﷺ «فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين**»(٣)

وقد ظهرت فضيلة المصطفى ﷺ ليلة الإسراء والمعراج بتقدمه عليهم إمامًا، وعلوه فوق الجميع مقامًا حتى جاوز السبع الطباق إلى سدرة المنتهي إلى حيث شاء الله عَزَّ وَجَلَ واختص ﷺ بأشياء أخرى في سماحة شريعته ووضع الآصار

---

(١) رواه البخاري برقم [٦١٤]، وأبو دواد برقم [٥٢٩] والترمذي برقم [٢١١] والنسائي (٢/ ٢٧).

(٢) رواه مسلم برقم [٣٨٤] وأبو داود برقم [٥٢٣] والترمذي برقم [٣٦٩٤] والنسائي (٢/ ٢٥).

(٣) رواه البخاري برقم [٣٥٣٥]، ومسلم برقم [٢٢٨٦].

عن أمته وكونه ﷺ أول من ينشق عنه القبر، وأول شافع وأول مشفع، وأول من يستفتح باب الجنة، وأول من يدخلها من الأمم أمته، وله الحوض المورد وهو الكوثر، وله اللواء المعقود وهو لواء الحمد تحته آدم فمن دونه، وله المقام المحمود وهي الشفاعة العظمى ويرغب إليه كل الخلائق حتى إبراهيم الخليل، وأول من يجوز الصراط هو النبي محمد ﷺ وأمته[1] ومقاماته علية لا ينالها في الخلق غيره ولا يدركها من البشر سواه، ولا يصل إلى هذه المنزلة إلا رسول الله ومصطفاه.

ولقد أوتي النبي ﷺ من المعجزات الباهرة والأدلة الظاهرة ما لم يؤتاه رسول من قبله كرحلة الإسراء والمعراج وهذا القرآن العظيم الذي هو حجة على الخلق مادام فيها أحياء كذلك نبع الماء من بين أصابعه وسلم الحجر عليه ﷺ وبكي الجذع حنينًا لفرقه وانشق القمر تأييدًا له وآياته ومعجزاته ﷺ كثيرة صنف فيها العلماء، بل لقد قال الإمام الشافعي رحمه الله ما أوتي نبي من الأنبياء معجزة إلا وأوتي النبي ﷺ مثلها فقيل له: إن عيسى أوتي إحياء الموتى فقال: ونبينا أوتي حنين الجذع وهذه أكبر من تلك.

إن المرء يقف وقفة إجلال هيبة حينما يريد أن يتكلم عن هذا النبي الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، ماذا يمكن أن يقال بعد أن مدحه ربه وأثنى عليه وشرفه بما لم يشرف به أحدًا من الخلق؟ ماذا يمكن أن يقال بعد آيات محكمة أظهرت فضله وكرامته وجلال منزله؟ ماذا يمكن أن يقال وقد نطقت السنة المشرفة بفضله وعظمته؟!

لقد اختار الله خير خلقه لينال كرامة نزول خير كتبه عليه وهذا من حكمة الحكيم وتدبير العزيز الرحيم فاللهم لك الحمد أن جعلت كتابنا خير كتاب ورسولنا خير رسول وأمتنا خير أمة.

---

(١) انظر «معارج القبول» (٤/ ٢٣٣).

رابعًا- عظمة الزمان الذي نزل فيه القرآن.

لقد اختار الله جل جلاله أشرف زمان ليكون فيه نزول القرآن وذلك في شهر هو أعظم الشهور وأفضلها وفي ليلة هي درة التاج في هذا الشهر الكريم الفضيل إنه شهر رمضان والليلة ليلة القدر يقول الملك العلي الأعلى جل وعلا: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾[البقرة: ١٨٥] وكذلك قال الله الرب العظيم الحكيم: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾[الدخان: ٣-٤]، وقبل هذه الآية أقسم الله جل جلاله وحلف بالقرآن على إنزال القرآن فقال: ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾، قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هذا قسم بالقرآن فأقسم بالكتاب المبين لكل ما يحتاج إلى بيانه أنه أنزله ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾، أي: كثيرة الخير وهي ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر فأنزل أفضل الكلام في أفضل الليالي والأيام على أفضل الأنام، بلغة العرب الكرام لينذر به قومًا عمتهم الجهالة وغلبت عليهم الشقاوة، فيستضيئوا بنوره ويقتبسوا من هداه، ويسيروا وراءه، فيجعل لهم الخير الدنيوي والخير الأخروي ولهذا قال: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾« فِيهَا » أي: في تلك الليلة الفاضلة التي نزل فيها القرآن ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾حكم الله به[(١)].

ولهذا أفرد كلامًا مختصرًا عن فضل رمضان على حدة ثم أتبع ذلك بفضل ليلة القدر. لقد أُنزل القرآن المبارك في شهر رمضان المبارك ليربي الله به أمة مباركة خيرة وفي أول ليلة من رمضان تفتح أبواب السماء وتغلق أبواب النيران وتسلسل وتقيد الشياطين كما في الصحيحين من حديث أبي هريرة أن، النبي ﷺ قال: «**إذا دخل شهر رمضان فتحت أبواب السماء وغلقت أبواب جهنم وسلسلت الشياطين**»[(٢)] وعند الترمذي وابن ماجة وغيرهما من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «**إذا**

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» ص (٩١٥-٩١٦) ط: دار ابن الجوزي.

(٢) رواه البخاري برقم [١٨٩٩] ومسلم برقم [١٠٧٩].

كانت أو ل ليلة من رمضان صفدت الشياطين ومردة الجن وغلقت أبواب النار فلم يفتح منها باب وفتحت أبواب الجنة فلم يغلق منها باب ونادى مناد: يا باغي الخير أقبل ويا باغي الشر أقصر ولله عتقاء من النار وذلك كل ليلة »(١) وفي رمضان مغفرة الذنوب وفرض المغفرة كثيرة غزيرة عظيمة في الصحيحن من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «**من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه**»(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ رقي المنبر فقال: «**آمين. آمين**» قيل له: يا رسول الله، ما كنت تصنع هذا؟ فقال: «**قال لي جبريل: رغم أنف عبد أدرك أبويه أو أحدهما فلم يدخل الجنة، قلت: أمين . ثم قال: رغم أنف عبد دخل عليه رمضان لم يغفر له قلت: «أمين» ثم قال: رغم أنف أمرئ ذكرت عنده فلم يصل عليك فقلت أمين**»(٣) وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «**الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما أجتنبت الكبائر**»(٤).

وفي رمضان فرض الله الصيام لتكون الثمرة الإيمانية العالية هي تحقق التقوى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾[البقرة: ١٨٣]، وفيه شرع الله وأوجب صدقة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث وطعمة للمساكين، وفيه شرع الله القيام في الليل جماعة ليكون في ذلك مغفرة ما تقدم من الذنوب وفيه شرع الله الاعتكاف في العشرة الأواخر وفيه تستحب العمرة وتكون بأجر حجة مع النبي ﷺ وفيه الخيرات والذكر والدعوات وقراءة القرآن فهو شهر مبارك اختاره الله واصطفاه من بين الشهور ليكون أفضلها ولينزل فيه أفضل كتبه في أفضل ليلة نزل القرآن وهذا ما نذكره فيما يلي.

(١) رواه الترمذي [٦٨٢]، وابن ماجه [١٦٤٢] وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» [٧٥٩].

(٢) رواه البخاري برقم [١٩٠١] ومسلم برقم [٧٠٩].

(٣) رواه الترمذي برقم [٣٥٤٥]، والبخاري في «الأدب المفرد» [٦٤٦]، وصححه الألباني في «الأداء» رقم[٦].

(٤) رواه مسلم برقم [٢٣٣].

فضل ليلة القدر على سائر الليالي:

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ [القدر: ١-٥]، يقول الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ يفخر تعالى أنه أنزل القرآن في ليلة القدر وهي الليلة المباركة التي قال عَزَّ وَجَلَ ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ وهي ليلة القدر من شهر رمضان كما قال تعالى ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ قال ابن عباس وغيره: أنزل الله القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا ثم نزل مفصلًا بحسب الوقائع في ثلاث وعشرين سنة على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم قال معظمًا لشأن ليلة القدر التي اختصها الله بإنزال القرآن العظيم فيها فقال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ (١).

ويقول السعدي رَحِمَهُ اللهُ: إن الله تعالى ابتدأ بإنزال القرآن في رمضان في ليلة القدر ورحم الله بها العباد رحمة عامة لا يقدر العباد لها شكرًا وسميت ليلة القدر لعظم قدرها وفضلها عند الله تعالى ولأنه يقدر فيها ما يكون في العام من الآجال والأرزاق والمقادير القدرية ثم فخم شأنها وعظم مقدارها فقال ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾ أي فإن شأنها جليل وخطرها عظيم ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ أي تعادل من فضلها ألف شهر فالعمل الذي يقع فيها خير من العمل في ألف شهر خالية منها مما تتحيرَّ فيه الألباب وتندهش له العقول حيث منَّ تبارك وتعالى على هذه الأمة الضعيفة القوة والقوي بليلة يكون فيها العمل يقابل ويزيد على ألف شهر (٢) قال الشيخ أبو عبد الله مصطفي العدوي حفظه الله انتظمت السورة جملة فضائل لهذه الليلة: أحدها أن الله عزَّ وجَلَ أنزل القرآن في هذه الليلة .

---

(١) «تفسير القرآن العظيم».

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» للعلامة السعدي ص [١٠٩٨].

الثاني- أن الله عَزَّ وَجَلَ عظم شأنها بذكرها وبقوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ﴾

الثالث- أن العبادة فيها خير من العبادة في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر .

الرابع- أن الملائكة ومعهم جبريل تتنزل في هذه الليلة .

الخامس- أن الأمن والسلام يحل في هذه الليلة على أهل الإيمان وتسليم الملائكة يتوالى عليهم فيها(١) ومن فضائل هذه الليلة المباركة أن من قامها غفرت ذنوبه المتقدمة كما في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم : «**من قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه**»(٢) ولعظيم فضلها وشرفها كان النبي صلى الله عليه وسلم يعتكف العشرة الأواخر التماسًا لها.

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «**إن هذا الشهر قد حضركم وفيه ليلة خير من ألف شهر من حرمها فقد حرم الخير كله ولا يحرم خيرها إلا محروم**»(٣) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «**أتاكم شهر رمضان شهر مبارك فرض الله عليكم صيامه، تفتح فيه أبواب السماء، وتغلق فيه أبواب الجحيم، وتغل فيه مردة الشياطين، لله فيه ليلة خير من ألف شهر، من حُرم خيرها فقد حُرم**»(٤) قال أبو بكر الوَّراق: سُميت ليلة القدر لأنه نزل فيها كتاب ذو قدر على لسان ملك ذي قدر على رسول ذي قدر وعلى أمة ذات قدر.

وقال الزهري: سميت ليلة القدر لعظم قدرها وشرفها من قولهم لفلان قدر أي شرف ومنزلة.

---

(١) «التسهيل لتأويل التنزيل» جزء عم (٢/ ٤٤٨/ ٤٤٩ط) ماجد عسيري.

(٢) رواه البخاري برقم [٢٠١٤] ومسلم برقم [٧٥٩].

(٣) رواه ابن ماجه وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» رقم [٩٩٠].

(٤) رواه النسائي والبيهقي وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» برقم [٩٨٩].

وقال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: قال العلماء: وسميت ليلة القدر لما يكتب فيها الملائكة من الأقدار والأرزاق والآجال التي تكون في تلك السنة لقوله تعالى ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾ معناها يظهر للملائكة ما سيكون فيها يأمرهم بفعل ما هو من وظيفتهم وكل ذلك مما سبق علم الله تعالى به وتقديره له[(١)].

ولعظم قدر هذه الليلة حث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمته على تحريها وطلبها والحرص على قيامها كما تثبت ذلك في أكثر من حديث ومن ذلك ما رواه البخاري ومسلم من حديث أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**التمسوا ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان**»[(٢)] إن ليلة القدر أشرف الليالي وأعظمها لذا أختارها الله تعالى لتكون ميقاتًا لنزول كتابه العظيم المبارك.

خامسًا- عظمة المكان الذي نزل به القرآن:

لقد اصطفى الله العليم الخبير سبحانه وتعالى أطهر بقعة وأقدس البلاد وأفضلها لتكون محلًا لنزول القرآن عليها. وخير بلاد الله وأحبها إليه هي مكة سماها الله تعالى في كتابه ﴿بِبَكَّةَ﴾، ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾، ﴿ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾، والبلدة ولها أسماء أخرى تدل على شرفها وجليل قدرها عند الله وعند عباده.

وليس على وجه الأرض بقعة يجب على كل قادر السعي إليها والطواف بالبيت الذي بها غير مكة. وليس على وجه البسيطة بلد يجب على المسلم في صلاته أن يتوجه إليه في أي مكان كان غير هذا البلد الأمين كما قال رب العالمين في كتابه المبين:

---

(١) «شرح صحيح مسلم للنووي» (٤/ ٣٢٠).

(٢) رواه البخاري برقم [٢٠١٧]، ومسلم برقم [٩٦١١].

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾[البقرة: ١٤٤] فمكة قبلة المسلمين أحياءً وأمواتًا.

وهي أصل القري وأم القرى ومن هم فيها بالسيئات عوقب وإن لم يفعل كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[الحج: ٢٥] ومما يدل على عظمة هذا البلد وجليل قدره أن أقسم الله جَلَّ جَلَاله به فقال: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾.

[التين: ٩٦]

وفي مكة أول مسجد وضع على الأرض وهو أفضل المساجد والصلاة فيه بمائة ألف صلاة فيما سواه قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾[آل عمران: ٩٦]، وفي الصحيحين والمسند من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت يارسول الله! أي مسجد وضع في الأرض أول؟ قال: «**المسجد الحرام**» قلت: ثم أي؟ قال: «**المسجد الأقصي**» قلت: كم بينهما؟ قال: «**أربعون سنة**»(١).

ومكة هي البلد الحرام ومن جملة تحريمها تحريم صيدها وتنفيره من أوكاره وحرمة قطع شجرها وقلع حشيشها، فعن ابن عباس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يوم فتح مكة: «**لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا، فإن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض، وهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يحل فيه القتال لأحد قبلى ولم يحل لى إلا ساعة من نهار، فهو حرامٌ بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شوكه، ولا ينَّفر صيده، ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها ولا يختلي خلاها**» قال العباس: يا ر سول الله الإذخر فإنه لقينهم ولبيوتهم قال: «**الإذخر**»(٢)، ولا يختلي خلاها:

---

(١) رواه البخاري برقم [٣٣٦٦] ومسلم برقم[٥٢٠].

(٢) رواه البخاري برقم [١٨٣٤].

الخلا هو الرطب من النبات واختلاؤه قطعه واحتشاشه ومكة هو البلد الآمن كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٩٦] وذلك يعني أن حرم مكة إذا دخله الخائف أمن كل سوء كما قال الحسن البصري وغيره: كان الرجل يقتل فيضع في عنقه صوفة ويدخل الحرم فيلقاه ابن المقتول فلا يستطيع قتله حتى يخرج خارج الحرم.

وفي هذا يقول الله عَزَّ وَجَلَ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧] قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ٥٧] وامتن الله عَزَّ وَجَلَ على قريش كذلك بهذه النعمة فقال أيضًا: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۢ﴾ [التين: ٣-٤].

وقد نهى النبي ﷺ عن حمل السلاح بمكة إلا لحاجة كما روى مسلم عن جابر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لأحدكم أن يحمل بمكة السلاح[(١)] قال النووي رحمه الله: هذا النهي إذا لم تكن حاجة فإن كانت جاز هذا مذهبنا ومذهب الجماهير، قال القاضي عياض: هذا محمول عند أهل العلم على حمل السلاح لغير ضرورة ولا حاجة فإن كانت جاز[(٢)].

ومكة أحب بلاد الله إلى الله وخير أرض الله فعن عبد الله بن عدي بن الحمراء الزهري رضي الله عنه أنه سمع رسول الله يقول وهو واقف بالحزورة في سوق مكة: «**والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أُخرجت منك ما خرجت**»[(٣)].

---

(١) رواه مسلم برقم [١٣٥٦].

(٢) «شرح النووي على مسلم» (٥/ ١٤١).

(٣) رواه الترمذي برقم [٣٩٢٩]، وأحمد (٤/ ٣٠٥) وصححه ابن حجر في «الفتح» (٣/ ٨١)، والألباني في «المشكاة» رقم [٢٧٢٥]

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**ما أطيبك من بلدة وأحبك إلى ولولا أن قومي أخروجني منك ما سكنت غيرك**»(١).

ووجود الكعبة في مكة أمان للناس وبقاء للخير في الأمة ما بقيت قال الله تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ﴾[المائدة: ٩٧]، يقول السعدي رحمه الله يخبر تعالى أنه جعل الكعبة البيت الحرام قيامًا للناس يقوم بالقيام بتعظمه دينهم ودنياهم فبذلك يتم إسلامهم، وبه تحط أوزراهم وتحصل لهم بقصده العطايا الجزيلة والإحسان الكثير وبسببه تنفق الأموال وتقتحم من أجله الأهوال ويجتمع فيه من كل فج عميق جميع أجناس المسلمين، فيتعرفون ويستعين بعضهم ببعض ويتشاورون على المصالح العامة وتنعقد بينهم في مصالحهم الدينية والدنيوية قال تعالى: ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَـٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ﴾[الحج: ٢٨]، ومن أجل كون البيت قيامًا للناس قال من قال من العلماء إن حج البيت فرض كفاية في كل سنة فلو ترك الناس حجة لأثم كل قادر. بل لو ترك الناس حجه لزال ما به قوامهم وقامت القيامة(٢).

وقال ابن حجر: قيامًا أي قوامًا وأنها ما دامت موجودة فالدين قائم.

وعن عطاء قال: قيامًا للناس لو تركوه عامًا لم ينظروا أن يهلكوا.

ومكة محروسة من الدجال وكذلك المدينة النبوية محروسة منه كما في صحيح مسلم من قول المسيح الدجال الذي وجده تميم الداري ومن معه في جزيرة في البحر قال: وإني مخبركم عني إني أنا المسيح وإني أوشك أن يؤذن لي في الخروج فأخرج فأسير في الأرض فلا أدع قرية إلا هبطتها في أربعين ليلة غير مكة وطيبة فهما محرمتان عليَّ كلتاهما(٣).

---

(١) رواه الترمذي برقم [٣٩٢٦]، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم [٥٥٣٦]، وفي «المشكاة» برقم [٧٢٧٤].

(٢) «تفسير السعدي» [٢٦٠].

(٣) رواه مسلم برقم [٢٩٤٢].

يحسن إلى أرض الحجاز فؤادي ... ويحدوا اشتياقي نحو مكة حادي

ولي أمل ما يزال يسموا بهمتي ... إلى البلدة الغراء خير بلاد

بها كعبة الله التي طاف حولها ... عبادٌ هم لله خير عبادِ

ويلى مكة في الفضل المدينة المنورة وقد نزل بها القرآن ، كذلك فالمكي ما نزل بمكة والمدنى ما نزل بالمدينة وإن كان التحقيق في ذلك أن القرآن المكي ما أنزل قبل الهجرة والمدنى ما نزل بعد الهجرة، والشاهد نزول القرآن بالمدينة كما نزل بمكة والمدينة بلد حرام كما عند مسلم أن النبي ﷺ قال: «**إن إبراهيم حرم مكة ودعا لأهلها، وإني حرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة وإني دعوتُ في صاعها ومدها بمثلي ما دعا به إبراهيم لأهل مكة**»(١).

وقال رسول الله ﷺ «**إنى أحرم ما بين لا بتي المدينة أن يقطع عضاها أو يقتل صيدها**» وقال «**المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون لا يدعها أحد رغبة عنها إلا أبدل الله فيها من هو خيرٌ منه ولا يثبت أحدٌ على لأوائها وجهدها إلا كنتُ شفيعًا أو شهيدًا يوم القيامة**»(٢).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «**اللهم اجعل بالمدينة ضعفي ما بمكة من البركة**»(٣).

وقال ﷺ : «**المدينة حرم، فمن أحدث فيه حدثًا أو آوي محدثًا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين**»(٤).

---

(١) رواه مسلم برقم [١٣٦٠].

(٢) رواه مسلم برقم [١٣٦٣].

(٣) رواه البخاري برقم [١٨٨٥]، ومسلم برقم [١٣٦٩].

(٤) رواه مسلم برقم[١٣٧١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**على أنقاب المدينة ملائكة لا يدخلها الطاعون ولا الدجال**»(١).

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**يأتي المسيح من قبل المشرق همته المدينة حتى ينزل دبر أحد ثم تصرف الملائكة وجهة قبل الشام وهنالك يهلك**»(٢).

وفي صحيح البخاري من حديث أبي بكر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**لا يدخل المدينة رعب المسيح الدجال، لها يومئذ سبعة أبواب على كل باب ملكان**»(٣).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**ليس من بلدٍ إلا سيطؤه الدجال إلا مكة والمدينة، ليس له من نقابها نقب إلا عليه الملائكة صافين يحرسونها ثم ترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات فيخرج الله كل كافر منافق**»(٤)

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لا يكيدُ أهل المدينة أحد إلا انماع كما ينماع الملح في الماء**»(٥) هذا اللفظ رواية البخاري وعند مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**من أراد أهل المدينة بسوء أذابه الله كما يذوب الملك في الماء**»(٦).

وإلى المدينة يأوي الإيمان ويستقر الإيمان في كل وقت وزمان، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها**»(٧).

---

(١) رواه البخاري برقم [١٨٨٠] ومسلم برقم [١٣٧٩].

(٢) رواه مسلم برقم [١٣٨٠].

(٣) رواه البخاري برقم [١٨٧٩].

(٤) رواه البخاري برقم [١٨٨١].

(٥) رواه البخاري برقم [١٨٧٧].

(٦) رواه مسلم برقم [١٣٨٧].

(٧) رواه البخاري برقم [١٨٧٦].

وفي المدينة روضة دائمة باقية من رياض الجنة كما في الصحيحين أن النبي ﷺ قال: «**ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة ومنبري على حوضي**»(١).

والصلاة في مسجد الرسول ﷺ بالمدينة المنورة بألف صلاة فيما سواه، كما أن الصلاة في المسجد الحرام في مكة بمائة ألف صلاة، قال رسول الله ﷺ: «**صلاة في مسجدي هذا خيرٌ من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام**»(٢).

وقال رسول الله ﷺ: «**صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام، وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة صلاة في هذا**»(٣).

في مكة والمدينة نزل القرآن وفيها ذكر من فضلهما برهان وبيان أنهما أفضل من كل مكان، ولهذا الطهر والعظمة والجلال والقدسية والبركة في الأرض اختار الله هذين البلدين ليكون محلًا لنزول كتابه الكريم على نبيه وخاتم رسله محمد ﷺ وليس على وجه الأرض بلد أفضل من هاتين الدرتين الخالدتين في العالمين يتجدد فضلهما لكل جيل ويتوارث المسلمون جلال المكان والمنزلة لهذين البلدين.

سادسًا- عظمة اللغة التي نزل بها القرآن:

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ﴾ [إبراهيم: ٤]، هكذا كانت حكمة الملك العليم جل جلاله أن يرسل كل نبي بلغة القوم الذين أرسل

---

(١) رواه البخاري برقم [١٩٦] ومسلم برقم [١٣٩١].

(٢) رواه مسلم برقم [١٣٩٥].

(٣) رواه ابن ماجه برقم [١٤٠٦]، وأحمد في «المسند» (٣/ ٣٤٣) والبيهقي وحسنه النووي كما في «شرح صحيح مسلم» (٥/ ١٧٩) ط: دار الحديث وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» برقم [١١٧٢].

فيهم. ولقد كان العرب فصحاء بلغاء. أرباب لغة عميقة وبيان خلاب جذب وقالوا بلغتهم شعرًا ونثرًا لم يعرف نظير في التفوق في ذلك الحين، وبرع العرب في اللغة براعة عظيمة عجيبة، ومن طالع الأدب الجاهلي من شعر ونثر رأى قوة واقتدارًا عجيبًا في امتلاك ناصية اللغة، والتعبير ببلاغة وبيان عن مشاهد الحياة وشواهدها وجاء القرآن بلغة العرب التي هي أفصح اللغات وأكملها لكنه أذهل كل فصيح وأسكت كل بليغ وأعجز كل شاعر أو أديب، لأنه كلام من خلق وبرأ، كلام الحكيم العليم وفضل كلامه على سائر الكلام كفضله سبحانه على خلقه.

جاء القرآن عربيًا بلغة العرب وهي اللغة القوية الحية الباسلة الباقية قال الله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾[الشعراء: ١٩٣-١٩٥]، وقال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾[الشورى: ٧].

وقال جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾يقول السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «بلسان عربي» وهو أفضل الألسنة بلغة من بعث إليهم وباشر دعوتهم أصلًا اللسان البين الواضح، وتأمل كيف اجتمعت هذه الفضائل الفاخرة في هذا الكتاب الكريم فإنه أفضل الكتب نزل به أفضل الملائكة على أفضل الخلق، على أفضل بضعة منه وهي قلبه على أفضل أمة أخرجت للناس بأفضل الألسنة وأفصحها وأوسعها وهو اللسان العربي المبين[(١)].

وهذه اللغة التي نزل بها القرآن وتكلم بها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هي أوسع اللغات مدى وأبسطها لسانًا وأبينها بيانًا وأعظمها بلاغة يقول الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: ولسان العرب أوسع الألسنة مذهبًا، وأكثرها ألفاظًا ولا نعلمه يحيط بجميع علمه غير نبي ولكنه لا يذهب منه شيءٌ على عامتها حتى لا يكون موجودًا فيها من يعرفه وللعلم به ـ

(١) «تيسير الكريم الرحمن» ص [٦٩٩].

أي بلسان العرب ـ عند العرب كالعلم بالسنة عن أهل الفقه لا نعلم رجلًا جمع السنن فلم يذهب منها شيء فإذا جمع عامة أهل العلم بها أتى السنن وإذا فرق علم كل واحد منهم ذهب عليه منها ثم كان ما ذهب عليه منها موجودًا على غيرها[١].

إن للغة العربية من طواعية التعبير، وعذوبة المنطق، وسعة البيان، وغزارة الألفاظ، ورشاقة اللفظ ما ليس لغيرها من لغات العالم، إنها لغة جزلة رصينة، سهلة فخمة سامقة شامخة يقول الدكتور فتحي جمعة حَفِظَهُ اللهُ: العربية كما يشهد لها المنصفون لغة تملك كل مقومات التعبير عن أدق المعاني وأعمق الأفكار في ثلاثة العناصر التي تتكون منها اللغات أعنى الأصوات والمفردات، والجمل والأساليب.

فأصواتها ممثلة في نظام متكامل يستوعب أكثر الأصوات التي يمكن أن ينتجها جهاز النطق الإنساني، فليس فيها مخرج صوتي واحد ناقص، ومن هنا اشتملت على مجموعات صوتية لا توجد بكمالها إلا فيها وهي أصوات الحلق وأصوات الإطباق فهي كما قال العقاد رَحِمَهُ اللهُ لغة إنسانية ناطقة يستخدم فيها جهاز النطق الحي أحسن استخدام أما المفردات فهي غنية غنى واسعًا، وقد استطاع العرب القدماء أن يصنعوا للفروق الدقيقة بين المعاني ألفاظًا تعبر عنها ونزل عليها ويكفي أن نقلب النظر في واحد من كتب فقه اللغة العربية في التراث القديم كالغريب المصنف لأبي عبيد القاسم بن سلام ومبادئ اللغة للإسكافي، وفقه اللغة للثعالبي، والمخصص لابن سيده لنقف على صورة شاملة للعربية كيف مثلت حياة العرب أصدق تمثيل، فتضمنت تضمنًا دقيقًا مستوعبًا للموجودات. يقول الدكتور محمد المبارك العالم اللغوي السوري: إن مفردات اللغة العربية تدل على أن العرب صنف الوجود تضيفًا شاملًا دقيقًا منطقيًا يدعو إلى الدهشة والعجب، ويدل على مستوى فكرى فلما وصلت إليه الأمم في مثل هذا التطور من تاريخ حياتها.

---

(١) انظر «الرسالة» للشافعي ص [٤٠] تحقيق أحمد شاكر.

وفي مجال التركيب نرى ميزتين ظاهرتين نشير إليها ولا نحيط بها أولاهما هي الإعراب الذي احتفظت العربية وحدها دون سائر اللغات بكل مظاهره حتى اليوم والذين يعرفون العربية ويحسنون ذوقها هم الذين يعلمون علم اليقين أن ظاهرة الإعراب تمنح المتكلم بهذه اللغة طاقة هائلة على تنويع كلامه وتعريف جهاته ولأن حركات الإعراب دوال المعاني فهو يقدم ويؤخر، ويحور ويغير ويبادل بين مواقع التركيب آمنًا مطمئنًا معانية لن تتأثر بشيء من ذلك لأن علامات الإعراب تؤازره وتعينه.

والميزة الأخرى هي بناء الجملة: يقوم بناء الجملة العربية كما نعلم على صورتين رئيسيتين:

۞ الجملة الفعلية: فعل+ اسم (فاعل) انتصر خالد.

۞ الجملة الاسمية:

(أ) اسم+ اسم مشتق، خالد قائد منتصر.

(ب) اسم+ اسم جامد، خالد أسد.

(جـ) اسم+ فعل، خالد قاد الجيش.

ومعنى أن في العربية صورًا أربعًا لبناء الجملة تقابلها واحدة تقريبًا في اللغات الأوروبية، وفي ذلك بغير شك توسعة تعطي مزيدًا من القدرة التعبيرية في مجالات التعبير التي تستخدم فيها اللغة.

هذا إلى صفات نوعية يتميز بها الشكل العام للأساليب في العربية لعل من أهمها إلى الإيجاز وتفضيله واعتباره جوهر البلاغة ومناط المهارة في التعبير فالبلاغة الإيجار كما يقال ولهذا برع العرب فيه ونوعوا ضروبه فكانت لهم منه آثار رائعة وحكم بالغة على نحو لا نجد مثله في أكثر اللغات[1].

(١) «اللغة الباسلة» (٨٨-٩١) بتصرف ط: دار الثقافة العربية١٩٩٦.

ولأعداء العربية ننقل كلامًا من كلام الخصوم المنصفين الذين نطقوا بالحق وإن كانوا له أعداء .

يقول المستشرق آدبري: إن اللغة العربية لغة حية وحضارة العرب هي حضارة مستمرة فهي حضارة الأمس واليوم والغد، وعن طريق العرب عرفت أوربا الحضارة وحين كانت (أوربا) تغط في سباتها العميق كان العرب يصنعون الحضارات. والحق أن اللغة العربية حضارية بكل ما تحمله الكلمة من معني (١).

ويقول أرنست رينان المستشرق الفرنسي الكبير:

من أغرب المدهشات أن تثبت تلك اللغة القوية وتصل إلى درجة الكمال وسط الصحاري عند أمة من الرحل، تلك اللغة التي فاقت أخواتها بكثرة مفرداتها ودقة معانيها، وحسن نظام مبانيها. وكانت هذه اللغة مجهولة عند الأمم، ومن يوم علمت ظهرت لنا في حلل الكمال لدرجة أنها لم تتغير أي تغير يذكر، وحتى إنها لم يعرف في أطوار حياتها طفوله ولا شيخوخة ولا نكاد نعلم من شأنها إلا فتوحاتها وانتصاراتها التي لا تُباري، ولا نعلم شبيهًا لهذه اللغة التي ظهرت للباحثين كاملة من غير تدرج وبقيت حافظة لكيانها من كل شائبة (٢).

ويقول أحد المستشرقين عن هذه اللغة: إنها ولدت كاملة الجمال واحتفظت بجمالها وكمالها مع تعاقب الأزمان وتطاول الخطوب (٣).

هكذا نطق الخصوم والأمثلة كثيرة ولسنا في حاجة على أن ندلل على رصانة العربية وقوتها بكلام الأعاجم يكفيها فخرًا أن يختارها الله لتكون سيدة اللغات ووعاء الإسلام، ولغة الكتاب الخاتم المهيمن على كل ما سبقه من كتب سماوية، ومن درس

(١) تقرير لمجمع اللغة العربية بالقاهرة نقلًا عن السابق ص[٩٢].

(٢) دراسات في العربية وتاريخ للإمام محمد الخضر حسين ص[١٩] نقلًا عن السابق ص[١١].

(٣) السابق نفس الصفحة.

اللغات وله علم بها تبين له قوة العربية وجزالتها وسعتها وبلاغتها وتفوقها وتقدمها على كل اللغات إن الإنجليزية والفرنسية مثلًا لا تعرف المثني وإنما عندهم إما مفرد وإما جمع ، وكذلك تنفرد العربية بصفات وإيجازات وتشبيهات بلاغية لا تستوعبها لغة أخرى يقول العقاد: واللغة العربية في طليعة اللغات المعبرة بين لغات العالم الشرقية والغربية فلا يعرف علماء اللغات لغة قوم تتراءى لنا صفاتهم وصفات أوطانهم من كلماتهم وألفاظهم كما تتراءى أطوار المجتمع العربي من مادة ألفاظه ومفرداته في أسلوب الواقع وأسلوب المجاز(١).

يقول الدكتور المقدم حَفِظَهُ اللَّهُ: إن لغتنا ليست مجرد لغة قومية لكنها لغة دينية تجمع حولها المسلمين عربًا وعجمًا قال شيخ الإسلام ابن تيمية: اللغة العربية من الدين، ومفرقتها فرض واجب فإن فهم الكتاب والسنة فرض ولا يفهمان من إلا بفهم العربية وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

وقال المرتضى: من أبغض اللسان العربي أداه بغضه إلى بغض القرآن وسنة ا لرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وذلك كفر صراح وهو الشقاء الباقي نسأل الله العفو(٢).

سابعًا- تفرد القرآن بالبقاء والكمال:

لقد مر من عمر هذا الزمان على نزول هذا القرآن على رسول الله محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أربعة عشر قرنًا واندثرت فيها أجيال، وتبدلت فيها أحوال، وتتابعت خطوب وأهوال، وبادت فيها أمم، وانمحت فيها حضارات وتبدلت فيها المعالم والآثار، وما بقي شيءٌ على حاله الذي كان غير هذا القرآن. بقي القرآن هو القرآن في عظمته وروعته، في كماله وجلاله. وبقي محفوظًا من أي تبديل، معصومًا من التغيرات لم ينقص منه حرف أو كلمة

(١) «اللغة الشاعرة» للعقاد ص [٧١].

(٢) «الهوية الإسلامية» ص [٦٤] ط: دار ابن الجوزي.

ولم يزد فيه حرف أو كلمة ولم تغب منه جملة أو تقدم كلمة على أخرى أو حرف على آخر فالقرآن الذي صلى به رسول الله ﷺ وتعبد به لربه ودعا به أصحابه وجمعهم عليه هو ذات القرآن الذي نتلوه اليوم ونقرؤه بنفس الحروف والمعاني والكلمات، بل بنفس الطريقة والكيفية التي قرأ بها رسول الله ﷺ ومن شاء أن يستيقن من ذلك فليطالع علم التجويد الذي توارثه أفاضل العلماء عن إمام الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه وغاية هذا العلم صيانة اللسان عن اللحن والخطأ في تلاوة كلام الله تعالى.

نعم نقل القرآن من جيل إلى جيل يحمله من كل جيل الأفضل منهم أولئك يوفقون ويؤهلون لحمل رسالة الله إلى خلقه . وصل القرآن إلينا ناصعًا قويًا كأنما نزل من السماء الآن يخاطب كل أحد ويصلح كل خلل، ويهدي كل ضال، ويصدع كل معاند،ويسحق كل كافر جاحد لقد بقي القرآن معصومًا محفوظًا لأن الذي تكفل بحفظه وبقائه هو الله جل جلاله ووعده الحق وقوله الصدق وأمره هو النافذ المتحقق ولو اجتمع كل الخلق على خلافه ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[يوسف: ٢١].

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[الحجر: ٩] . الله هو الذي أنزله، وهو الذي تولى حفظه، وهو الذي تكلم به، وهو الذي وعد ببقائه، ولا معقب لحكم الله ولا مضاد لأمره، ولا منازع له جل جلاله، ويقول الإمام الطبري عليه رحمة ربنا العلي : يقول تعالى ذكره:﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ﴾ وهو القرآن ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ قال: وإنا للقرآن لحافظون من أن يزاد فيه باطل ما ليس فيه أو ينقص منه ما هو من أحكامه وحدوده وفرائضه[1].

(١) «جامع البيان في تأويل آيِّ القرآن» للطبري (١٤/ ٧ ط) مصطفى الحلبي.

وقال الإمام القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ ﴾ يعنى القرآن ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ أن يزاد فيه أو ينقص منه قال قتادة وثابت البناني: حفظه الله من أن تزيد فيه الشياطين باطلًا أو تنقص منه حقًا فتولى سبحانه حفظه فلم يزل محفوظًا وقال في غيره «بما استحفظوا» فوكل حفظه إليهم فبدلوا وغيروا(١).

وساق القرطبي بسنده عن يحيى بن أكثم قال: «كان للمأمون وهو أمير إذا ذاك مجلس نظر فدخل في جملة الناس رجلٌ يهودي حسن الثوب حسن الوجه طيب الرائحة. قال فتكلم فأحسن الكلام والعبارة قال: فلما تقوض المجلس دعاه المأمون فقال له إسرائيلي؟ قال: نعم، قال له: أسلم حتى أفعل بك وأصنع ووعده فقال: ديني ودين آبائي! وانصرف قال: فلما كان بعد سنة جاءنا مسلمًا قال: فتكلم على الفقه فأحسن الكلام فلما تقوض المجلس دعاه المأمون وقال: ألست صاحبنا بالأمس؟ قال: بلى قال: فما سبب إسلامك؟ قال: انصرفت من حضرتك فأحببت أن أمتحن هذه الأديان، وأنت تراني حسن الخط فعمدتُ إلى التوراة فكتبت ثلاث نسخ فزدت فيها ونقصت، وأدخلتها الكنيسة فأشيرت منى. وعمدت إلى الإنجيل فكتبتُ ثلاث نسخ فزدت فيها ونقصت وأدخلتها البيعة فاشتريت مني. وعمدت إلى القرآن فعملتُ ثلاث نسخ وزدت فيها ونقصت، وأدخلتها الوراقين فتصفحوها فلما وجدوا فيها الزيادة والنقصان رموا بها فلم يشتروها فعلمت أن هذا الكتاب محفوظ فكان هذا سبب إسلامي. قال يحيى بن أكثم: فحججتُ تلك السنة فلقيت سفيان بن عيينة فذكرتُ له الخبر فقال لي: مصداق هذا في كتاب الله عز وجل قال قالت في أي موضع؟ قال: في قوله تبارك وتعالى في التوراة والإنجيل: «بما استحفظوا من كِتاب الله» فجعل حفظه إليهم فضاع وقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]، فحفظه الله عز وجل علينا فلم يضع(٢).

(١) «الجامع لأحكام القرآن» لأبي عبد الله القرطبي (٥/ ٣٧٢٩) دار الغد العربي.

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٧٢٩ - ٣٧٣٠).

نعم رغم العداء الشديد، والكيد المريد، والمكر العنيد من أمم كافرة حاولت بكل إمكانياتها وطاقاتها أن تمحوا القرآن، فلم تفلح حاول أعداء كثيرون تغيير شيء في القرآن، فدحروا وانقلبوا صاغرين.

كان القرآن عدوهم الأول لأنهم يعلمون قوته وتأثيره العظيم على المسلمين. لذلك لم يأل الحاقدين على الإسلام جهدًا في حرب القرآن لكن كيدهم كان في تباب، ومكرهم عاد على أنفسهم، وغلبوا وعادوا داخرين خاسئين وبقي كلام رب العالمين خالدًا هاديًا للمهتدين ورحمة للمؤمنين وحجة على المعاندين سبحان من أنزله وأحكمه! ما أجله وما أعظمه!

نعم لقد بقي القرآن هو القرآن برغم الخصومات الشديدة، والمؤتمرات العنيدة والمكر المتصل، والمحاولات المستميتة التي تهدف في كل يوم إلى طمس معالم القرآن، ومحوه من الوجود ولكن أنى للأفواه كلها ولو اجتمعت أن تطفئ نور الله ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [الصف: ٨]، إنها عداوة دائمة دائبة حقودة مغرضة تبذل فيها الأموال والطاقات والعقول والأوقات لتصد عن سبيل الله وتصرف عن الهدى ولكن ربك بالمرصاد فكلما جاء غِرٌّ سفيهٌ ليتشدق بكلمات من فيه سقط قدره وبان عجزه وعاد كيده إلى نحره ونقل إلى مزبلة التاريخ ودائرة النسيان ثم يبقي القرآن هو القرآن.

نعم إخوتي العدواة للقرآن وللإسلام شديدة لئيمة من يوم: ﴿ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾[فصلت: ٢٨].

ويوم: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ﴾ [الفرقان: ٤]، ويوم: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[النحل: ٢٤] ثم جاء على ذات الدرب الخبيث جنود وأتباع يسيرون على نفس الخطا ويرددون تلك الترهات والسفاهات

بألسنتهم وقد علمت قلوبهم أنه الحق ولكنه العناد والزيغ والإلحاد الذي أعمى القلوب وأغشى الأبصار وهذه أقوالهم تنبئ عن خبثهم ـ يقبول الحاكم الفرنسى في الجزائر أيام الاحتلال: إننا لن ننتصر على الجزائريين ما داموا يقرؤون القرآن ويتكلمون العربية.

ويقول وليم جيفورد: متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب يمكننا حينئذ أن نرى العربى يتدرج في طريقة الحضارة الغربية بعيدًا عن محمد وكتابه.

۞ ويقول اللورد كرومر: جئت لأمحو ثلاثًا: القرآن، والكعبة والأزهر.

۞ ويقول جون تاكلي: يجب أن نستخدم القرآن وهو أمضى سلاح ضد الإسلام نفسه بأن يعلم هؤلاء الناس يعني المسلمين ـ أن الصحيح في القرآن ليس جديدًا، وأن الجديد ليس صحيحًا.

ويقول جلادستون وزير المستعمرات البريطانية سنة ١٨٩٥ ثم رئيس الوزراء بعد ذلك يقول: لن تحقق بريطانيا شيئًا من غاياتها في العرب إلا إذا سلبتهم سلطان هذا الكتاب. أخرجوا سر هذا الكتاب القرآن من بينهم تتحطم أمامكم جميع السدود.

۞ وقال أيضًا: مادام هذا القرآن موجودًا في أيدي المسلمين، فلن تستطيع أوربا السيطرة على الشرق ولا تكون هي نفسها في أمان.

۞ ويقول مرد خاى إلياهو مخاطبًا مجموعة على وشك الالتحاق بالجيش الإسرائيلي: هذا الكتاب الذي يسمونه القرآن هو عدونا الأكبر والأوحد، هذا العدو لا تستطيع وسائلنا العسكرية مواجهته كيف يمكن تحقيق السلام في وقت يقدس العرب والمسلمين كتابًا يتحدث عنا بكل هذه السلبية؟! على حكام العرب أن يختاروا إما القرآن وأما السلام معنا.

هكذا قالوا وبئس ما قالوا وقبح الله ما قالوا ولعنوا بما قالوا ولا زال أذيالهم ينعقون ويقولون ويرددون ويدرسون وينتقدون وهم في طغيانهم يعمهون وفي ضلالهم سادرون ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾[الأنعام: ١٢٣] مهما حاولوا

ودبروا وخططوا وسطروا، وفكروا وقدروا فإن كيدهم في تباب وسعيهم في خراب ومأواهم في الآخرة سوء العذاب ومن قبل ذلك في الدنيا حسرة وخسار.

نعم بقي القرآن هو القرآن رغم كيدهم وافترائهم وكذبهم، فلن تستطيع أفواه الخلق جميعًا ولو اجتمعت أن تطفئ نور الله، وتذكر هنا تأكيد لهذا المعني حادثة طريفة تناقلها العلماء من صحيفة إلى صحيفة وملخصها؛ أن فرنسا من أجل القضاء على القرآن في نفوس شباب الجزائر قامت بتجربة عملية، حيث قامت بانتقاء عشر فتيات مسلمات جزائريات وأدخلتهن الحكومة الفرنسية في المدارس الفرنسية وألبستهن الثياب الفرنسية فأصبحن كالفرنسيات تمامًا، وبعد أحد عشر عامًا من الجهود هيأت لهن حفلة تخرج رائعة دعى إليها الوزراء والمفكرون والصحفيون ولما ابتدأت الحفلة فوجئ الجميع بالفتيات الجزائريات يدخلن بلباسهن الإسلامي الجزائري، فثارت ثائرة الصحف الفرنسية وتسألت: ماذا فعلت فرنسا في الجزائر إذن بعد مرور مائة وثمانية وعشرين عامًا؟! فأجاب لاكوست وزير المستعمرات الفرنسي: وماذا أصنع إذا كان القرآن أقوى من فرنسا[1].

الله أكبر الله أكبر من كل كفور جحود ومن كل عدو لدود، الله أكبر الله أكبر من كل بأس وبطش، وكل مكرو وكل دهاء.

أنا مسلم والنور ينبض في دمي ... ولسان كل المكرمات لساني

أنا مسلم والشمس تألف هامتي ... والسائرون بدربها إخواني

نعم أنا مسلم ويا للفخار بهذا الشعار، أنا مسلم ويا للعزة والشرف بهذا الفضل والشرف!

أنا مسلم أنا مسلم ... هذا نشيدي الملهمُ

من أعمق الأعماق ... أبعث لحنه يترنمُ

---

(١) هذه الحادثة والمقولات السابقة منتقاة من كتاب «قادة الغرب» يقولون لجلال العالم.

روحي تـــــردده وقـلـبـي ... والـــــجـــــوارح والـــــدم
شـــوقًـــا وتـــحـــنـــانًـــا ... لأمـــجـــادنـــا تـــتـــكـــلـــمُ
أنـــا مـــسـلـم أنـــا مـسـلـم ... بـالـرغـم مـمـن يـحـقـدون
أنـــا هـــاهـــنـــا بـشـريـعـتـي ... في مـوكـب الـحـق المبين
أنـــا مـــسـلـم أنـــا مـسـلـم ... فـــي شـدتـي قـبـل الـرخـاء
بـعـقـيـدتـي الـــقـــرآن أسـمـو ... ســامــقًــا نـحـو الـسـمـاء
دنـيـاي روحـــي كـــل شيء ... فـــي الـحـيـاة لـهـا فـداء
إن قـــال حـي عـلـى الـجـهـاد ... تـجـبـه صـيـحـات الـدمـاء
لـــو كـنـت أشـــلاء ممزقة ... بـــأنـــحـــاء الـفـضـاء
لـم آل جُـهـدًا فـي كـفـاح ... مـنـاصـب الـديـن الـعـداء

ولله در من قال:

انشر ضياءك مشرقًا متألقًا ... متلألئ القسمات حلو المبسم
وابعث نداءك عاليًا واقرع به ... سمع الغفاة الغافلين النُوَّمِ
فـــنـــداؤك يـخـلـق هـــزة ... بمسامع الصخر الأمم الأبكم
صوت من البطحاء علوى الصدي ... هزَّ الوجود فيا عروش تحطمي
وتطلعي يا أرض للنور الذي ... دحر الظلام وللضياء تبسَّم
هو دعوة للتوحيد رنَّ أذانها ... يدعوأ البرية باسم رب أكرم
يامن حملت النور تفتح أعينًا ... عُمينا وتهديا للصرط الأقوم
أتهون أمتك التي أوليتها ... نعم الهداية من كريم منعم
أتضل والقرآن مشعل دربها ... يهدي خطاها في الكفاح المظلم
لا لن تذل فهذه راياتها ... رغم العواصف والدجى لم تحجم
ظمأى يحركها نداؤك كلما ... عصف الطغاق بركبها المتقدم

أنا مؤمن حطمت آلهة الهوى ... وبنائي الجبار لم يتحطم
سأظل في درب العلا مستمسكًا ... بالعروة الوثقى التي لم تفصمِ
يا أمة هبط الزمان بمجدها ... ذلًا وكانت في المقام الأعظم
لا عز إلا بالكتاب يقودنا ... أكرم بأحسن قائد ومعلم

نعم القرآن هو الأبقى والأكمل والأسمى والأعلى، ومهما دبر الملحدون المهازيل فلن يبقى إلا القرآن لن يكون إلا كلام الله وهذا وعد الله جَلَّ جلَّاله ومن أوفى بعهده من الله؟!

ثامنًا- روعة أسلوبه وعظمة تأثيره:

كانت العرب أمة بليغة فصيحة ذات بيان ولغة لا يُشق لهم غبار في ذلك، قالوا الشعر والنثر فأخذوا بالألباب وبهروا العقول وصار معبدهم في قولهم وفخرهم بقوة بلاغتهم وبيانهم، كانوا كذلك ولما طلع عليهم صبح الوحى، وأشرق في ديارهم فجر الحق انبهر كل بليغ وسكت كل فصيح وعجز كل متحدث أمام هذا الجلال والعظمة التي نزل بها القرآن، إنهم يتقنون الشعر وليس هذا شعرًا، هم يبرعون في النثر وليس هذا نثرًا، حاروا فيه وانعجم بليغهم في مقاله ونطق عاقلهم بالحق وقال كلا ليس هذا بقول بشر كما قال الوليد بن المغيرة.

وقال عتبة بن ربيعة حين سمع القرآن: يا قوم لقد علمتم أني لم أترك شيئًا إلا وقد عملته وقرأته وقلته والله لقد سمعت قولًا والله ما سمعت مثله قط ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة[(١)].

إن صورة نظم القرآن عجيبة وأسلوب القرآن فريد غريب مخالف لأساليب كلام العرب ومناهج نظمها ونثرها فهو ليس بشعر وليس بنثر ولكنه لون جديد فريد من البلاغة والبيان لم يعرف له العرب نظيرًا في لغتهم قبله ولا بعده، ولا استطاع أحدٌ منهم

(١) «الشفا» ص [٢٧٦]، ط: دار بن رجب.

مماثلته، بل حارت فيه عقولهم، وعجزت عن محاكاة شيء منه قرائحهم وسوف يظل الخلق جميعًا عاجزين لأن القرآن كلام الله رب العالمين، ولن يجد المخلوق سبيلًا ليقول كلامًا مثل كلام الخالق جَلَّ جلَّاله، ولما سمع جبير بن مطعم تلاوة القرآن من في رسول الله ﷺ اقشعر جلده وكاد قلبه أن ينخلع من عظمة ما سمع برغم أنه كان على الشرك، ولكن هذه الآيات صدعت الكفر والعناد في قلبه وأشرق فيه نور الإيمان كما في الصحيحين عنه أي جبير بن مطعم قال: سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور فلما بلغ هذه الآية: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴾[الطور: ٣٥-٣٧] كاد قلبي أن يطير للإسلام(١) وفي رواية: وذلك أول ما وقر الإسلام في قلبي.

وعن عتبة بن ربيعة: أنه كلم النبي ﷺ فيما جاءه به من خلاف قومه فتلا عليه: ﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾[فصلت: ١-١٣]، فأمسك عتبة بيده

(١) رواه البخاري برقم [٤٨٥٤]، ومسلم برقم [٤٦٣].

على فيّ النبي ﷺ وناشده الرحم أن يكف. وفي رواية: فجعل النبي يقرأ وعتبة مصغ ملف يديه خلف ظهره معتمدًا عليهما حتى انتهى إلى السجدة فسجد النبي ﷺ وقام عتبة لا يدري بم يراجعه ورجع إلى أهله فلم يخرج إلى أهله حتى أتوه فاعتذر لهم وقال: والله لقد كلمنى بكلام والله ما سمعت أذناي بمثله قط، فما دريت ما أقول له[1].

وحُكي أن ابن المقفع أراد أن يعارض القرآن وأن يكتب كلامًا يشبهه فمرَّ بصبيٍّ يقرأ: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[هود: ٤٤] ،فرجع ومحى ما عمل وقال: أشهد أن هذا لا يعارض وما هو من كلام البشر. وكان من أفصح أهل وقته.

نعم كان أسلوب القرآن جديدًا فريدًا بديعًا لم يعرف العرب له نظيرًا من قبله ولا من بعده. فليس هو بالشعر الذي فيه يبرعون ولا بالنثر الذي فيه يمهرون، وإنما هو نوع من الكلام جديد كلهم عن مثله يعجزون.

لقد اجتمعت قريش عند الوليد بن المغيرة يتذاكرون ما يقولون في القرآن وقد رأوا العرب يفدون إلى مكة في مواسم الحج والتجارة ووجد القرشيون أن أولئك العرب يستمعون إلى النبي ﷺ فيبلغ القرآن منهم أعماق نفوسهم ويأخذ بألبابهم ويسبي عقولهم، فائتمر المؤتمرون كيف يصدون الناس عن القرآن وفي نقاشهم وتحاورهم تري حيرتهم وترددهم ماذا يقولون؟! وترى أنهم لا ينكرون أن القرآن معجز لهم، وأنه فوق كل كلام .

اجتمعوا، ويا لبئس ما اجتمعوا له.

---

(١) «الشفا» للقاضي عياض ص [٢٨٤] وضعفه أخونا العلاوي في تحقيق «الشفا»، ط: دار ابن رجب.

قال لهم الوليد العارف الضال المكذب بالحق في كبر وهو يعلم أنه الحق قال لهم: إن وفود العرب ترد فأجمعوا فيه رأيًا لا يكذب بعضكم بعضًا.

قالوا: نقول كاهن.

قال: والله ما هو بكاهن وما هو بزمزمته ولا سجعه.

قالوا: مجنون.

قال: ما هو بمجنون ولا بخنفه ولا بوسوسته.

قالوا: نقول: شاعر.

قال: ما هو بشاعر قد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومبسوطه ومقبوضه ما هو بشاعر قالوا: فنقول: ساحر قال: ما هو بساحر ولا نفثه ولا عقده قالوا: فما تقول أنت؟ قال ما أنتم بقائلين في هذا شيئًا إلا وأنا أعرف أنه باطل وإن كان أقرب القول أنه ساحر فإنه سحر يفرق به المرء وابنه، والمرء وأخيه، والمرء وزوجه، والمرء وعشيرته فتفرقوا على ذلك وجلسوا على السبل يخذرون الناس .

وأما تأثير القرآن في النفوس وأخذه بالألباب والعقول فهو في ذلك فوق كل كلام وأعلى من كل تأثير لأنه كلام العليم الخبير الذي يعلم خبايا النفوس وطواياها. ولم يعرف في تاريخ الدنيا ولن يعرف كتاب غيَّر وجه الأرض وحول مجرى التاريخ، أثر في النفوس كالقرآن العظيم، ذلكم الكتاب جذب العرب إلى الإيمان بما فيه من روعة وقوة بيان، وإيجاز معجز وأقوال محكمة وقصص تطول وتقصر وهي مملوءة بالعبرة في طولها وقصرها وإطنابها الماتع الخلاب وإيجازها الذي لا يدع صغيرة ولا كبيرة إلا أوفاها بالعبارة الناصعة والإشارة الواضحة. القرآن هو الذي جذب العرب إلى الإيمان بما فيه من بيان حيث أدركوا أنه فوق طاقة البشر وأنه حقائق لا تنكر وبراهين لا تجحد، وحجج لا تدفع قال الله تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ [الحديد: ٢٥]، وتأمل كيف أن القرآن صاغ

من العرب أمة ذات قوة وقوام وعزة ونصرة بعد أن كانوا كالفتات المتناثر، وكالغنم المبعثرة في الليلة الشاتية. وجاء القرآن فوحد صفوفهم وألف بين قلوبهم وجعل من كل واحد منهم أمة كاملة، تتدفق من أفواههم ينابيع الهدي وتتهاوى أمام صولاتهم ملوك وممالك، وتنكسر أمامهم شوكة الطغيان والكفر، ويتوارى الظلم، والجهل فزعًا ورعبًا من صيحة الحق المدويَّة وسوف أقف وقفة متأنية مع هذا المعنى في فصل كامل بإذن الله بعنوان القرآن وصياغة النفوس[١]. وأريد أن أدلك على مثال واحد يدلك على عظمة تأثير القرآن حيث إن المشركين خافوا على أنفسهم أن يؤثر فيهم القرآن؛ ولذلك تواصلوا واتفقوا فيما بينهم ألا يسمعوا لهذا القرآن لأنهم رأو أن من سمعه يتأثر به وبعلو بيانه ووجدوا الناس يؤمنون به واحدًا بعد آخر ومنهم كبراء كانوا ذوي مقام ومنزلة ومكانة في قلوبهم وجد المشركون أن الإيمان يقوي ويشتد عوده ويرسخ وجوده وأن الشرك يضعف ويذبل ضرعه.وتجف منابعه فاتفقوا على أن لا يسمعوا لهذا القرآن وأن يشغبوا عليه وأن يصرفوا الناس عن سماعه وذلك بالتهريج في القول عند سماعه ولقد حكى الله تعالى ذلك عنهم فقال سبحانه: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ﴾ [فصلت : ٢٦]، هكذا كانوا يفعلون يحدثون المكاء والتصدية والصفير والتخليط والأصوات العالية حتى لا يسمع القرآن فلا يتأثرون به ولا يتأثر به غيرهم ولكن من ذا الذي يمنع الصبح إذا انبلج أو ضوء النهار إذا أشرق؟!

تاسعًا- سلامة القرآن من التناقض والاختلاف:

القرآن وحي الله إلى رسوله، وهو كلامه العظيم الذي أنزله لهداية خلقه، وليس في القرآن أي شئ من اختلاف أو تناقض لا في الأخبار ولا في الأحكام فأخبار القرآن كلها صدق وأحكام القرآن كلها عدل، قال جَلَّ جلَّاله: ﴿ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾، فكل ما أخبر الله به حق لا مرية فيه، وكل ما أمر

(١) ذكرت ذلك في فصل الإعجاز التأثيري.

به فهو العدل الذي لا عدل سواه، وكل ما نهي عنه فباطل من كل وجه فإنه لا ينهى إلا عن مفسدة ومضرة ذلك حكم الله، ولا معقب لحكمه ولا راد لفضله ولا منازع وقدره لأمره.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، فالقرآن هو الحق قول الحق وحق له أن يكون معصومًا محفوظًا من التناقص والاختلاف. وإذا كان كل كتاب يترجم عن قائله ويبين قدره ومكانته فكيف بكتاب الله الحكيم الخبير جَلَّ جَلَالُه؟!

كلمات القرآن وحروفه وجمل القرآن كلها محفوظة معصومة لن تجد لها تبديلًا ولا تحويلًا ولا أحسن منها قيلًا لا سيما وهو الحق ودليل الإيمان والآية العظمى والمعجزة الكبرى التي نتحدى بها كل ملحد كفور وكل منحرف زائغ. وكل من حاول أن يحارب القرآن أو أن ينتقص من قدره لم يجد إلا الفشل ومهانة النفس وخزيها وكان إخفاق كل المحاولين لمعارضة القرآن كسبًا جديدًا للحق وحجة قوية على المعاندين الناقمين، وبرهانًا ماديًا على أن القرآن كلام الله.

وكل كتاب من كتب البشر يخضع للنقد والرد والتعقيب والمقارنة وما سلم كتابٌ من النقد وعلا فوق كل عيب إلا القرآن، يقول ابن عطية في المحرر الوجيز: وكتاب الله لو نزعت منه لفظة ثم أدير النظر على لفظة أحسن منها لم يوجد، وقامت الحجة على العالم بالعرب إذا كانوا أرباب الفصاحة مظنة المعارضة[(١)].

ولو كان في القرآن عيب لغوي واحد لما توان مشركو مكة ومشركو العرب قاطبة عن إبراز هذا العيب والطعن به على القرآن وإظهاره أمام كل أحد لا سيما وهم أشد الناس عداءً للقرآن وأعرف الناس بلغة القرآن وأقدر من غيرهم على استخراج العيب إن وُجد ونهدي للمستشرقين الكافرين الذين يحرصون كل الحرص على حرب القرآن

(١) «المحرر الوجيز» لابن عطية الأندلسي (١/ ٢٧٨).

ولا يرجعون من حربهم له إلا بالخزي والخسران والنداء على أنفسهم بالجهل الفاضح والغباء المستحكم ما بالكم بكتابكم المقدس الذي اعترف المعترفون منكم بأنه يحتوي على آلاف الأخطاء الظاهرة لكل عاقل لقد نشرت مجلة (أوك) في سنة ١٩٥٢ مقالًا بعنوان الحقيقة عن الكتاب المقدس ذكرت فيه أنه في عام ١٧٢٠ قامت هيئة من الخبراء الإنجليز بتقدير عدد الأخطاء في الكتاب المقدس بحوالي عشرين ألف خطأ على الأقل.

فيما رفعت الدرسات الحديثة الرقم إلى خمسين ألف كما جاء في مجلة «اسيقظوا» التي أصدرتها جماعة شهود يهوه في العدد الصادر ص١٩٥٧ في مقال تحت عنوان: ٥٠٠٠٠ errors in the bip؟[١].

عاشرًا- سلامة القرآن من المعارضة:

ومعنى ذلك أنه لم يأت أحد من العالمين بمثله لا في الماضي ولا في الحاضر ولا في المستقبل قال الله الملك القدوس جل جلاله: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[الإسراء: ٨٨].

وهذا دليل قاطع وبرهان ساطع على صحة ما جاء به الرسول وصدقه حيث تحدى الله الإنس والجن أن يأتون بمثله وأخبر أنهم لا يأتون بمثله ولو تعاونوا كلهم على ذلك لم يقدروا عليه، ووقع كما أخبر الله فإن دواعي أعدائه المكذبين به متوفرة على رد ما جاء به بأي وجه كان، وهم أهل اللسان والفصاحة، فلو كان عندهم أدنى تأهل وتمكن من ذلك لفعلوه فعلم بذلك أنهم أذعنوا غاية الإذعان طوعًا وكرهًا، وعجزًا عن معارضته وكيف يقدر المخلوق من تراب، الناقص من جميع الوجوه، الذي ليس له علم ولا قدرة ولا إرادة ولا مشيئه ولا كلام ولا كمال إلا من ربه أن يعارض كلام رب الأرض والسماوات المطلع على سائر الخفيات الذي له الكمال المطلق والحمد المطلق والمجد العظيم الذي لو أن البحر يمده من بعده سبعة أبحر مدادًا والأشجار كلها أقلام

(١) انظر: «الرد الجميل» لعبد الغني النفاض.

لنفد المداد وفنيت الأقلام ولم تنفد كلمات الله، فكما أنه ليس أحدٌ من المخلوقين مماثلًا لله في أوصافه فكلامه من أوصافه التي لا يماثله فيها أحد، فليس كمثله شيءٌ في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله تبارك وتعالى فتبًا لمن اشتبه عليه كلام الخالق بكلام المخلوق وزعم أن محمدًا ﷺ افتراه على الله واختلقه من نفسه[1].

إن مشركي العرب مع شدة عدائهم للإسلام وحرصهم على تكذيب الرسول ﷺ وتكذيب القرآن المجيد ومع أن القرآن قد ذكر آباءهم بما لا يحبون وذكر أوثانهم بالتنقيص والعيب إلا أنهم لم يستطيعوا أن يقولوا مثله ولم يملكوا أمامه إلا الإذعان لبلاغته وقوته، وإن الثابت من ذلك أنه لم يحاول أحد من أهل البيان أن يأتي بمثله ولم يعرف ذلك عن أحد منهم قط، وإن كان التاريخ قد ذكر شيئًا من هذه المحاولة فإن ذلك لم يكن إلا في أيام الردة من مسيلمة الكذاب الذي سجل اسمه في التاريخ وارتبط بهذا الوصف ولا يعرف إلا به مسيلمة الكذاب لأن قومه عرفوا كذبه وضحك عقلاؤهم من قوله حتى قال أحدهم: والله إنك لكاذب وإن محمدًا لصادق ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر.

ويروى في ذلك أنه عرض قوله على عمرو بن العاص حينما كان يومئذ على الشرك قال لعمرو يعرض كلامه الذي يزعم أنه يوحي إليه من عند الله:قال: ياوبر يا وبر لك أذنان وصدر وإنك لتعلم يا عمرو.

فقال عمرو: والله إنك تعلم أني أعلم أنك كاذب!! وحين نعرض لبعض قوله ترى الركاكة والسفاهة وخفة العقل وخسة المعنى ودناءة المقصد من ذلك قوله: والطاحنات طحنًا، والعاجنات عجنًا والخابزات خبزًا.

---

(١) «تفسير السعدي» (٥٣٥-٥٣٦).

ومن ذلك قوله: إن أعطيناك الجماهر فصلِّ لربك وجاهر إلى غير ذلك من أقواله التي حكاها عنه من حكاها من المؤرخين ولعلك تلمح في هذا الكلام السفيه أنه ليس من المعارضة في قليل ولا كثير. وأين محاكاة الببغاء من فصاحة الإنسان؟! وأين هذه الكلمات السوقية الركيكة من ألفاظ القرآن العظيمة الرفيعة ومعانيه العالية النبيلة؟! وهل المعارضة إلا الإتيان بمثل الأصل في لغته وأسلوبه ومعانيه؟!

لقد استبان بهذا الجزء الهزيل الذي نقله المؤرخون عن مسيلمة الكذاب مقدار إدراك المشركين لعظمة القرآن إذ يحاولوا وهم الفصحاء البلغاء أن يعارضوا القرآن أو يجاروه لأنهم علموا أنه فوق قدرة البشر وأن من حاول أن يعارضه يكون أضحوكة للعرب وموضع سخرية واستهزاء فكفوا وامتنعوا عجزًا منهم وعلمًا بأن هذا لا يكون في قدرة مخلوق. نعم لم يعرف عن العرب كتاب عارضوا فيه القرآن ولم يحفظ عنهم في ذلك شيء عارضوا به كتاب الله وإذا ثبت هذا البرهان العظيم أن أحدًا من البشر لا يملك أن يأتي بمثل القرآن، بل لو اجتمع الخلق كلهم واستعانوا بمن شاءوا لعجزوا عن الإتيان بمثله ولهذا نقول: لزامًا على كل عاقل أن يسارع إلى امتثال حكم الله وأمره وأن لا يستكبر عنه أو يصد عنه، فالقرآن ـ والله هو سر سعادة البشر كلهم لو كانوا يعلمون!! هو سبيل السلام والأمان والنعيم لو كانوا يفقهون!!

إخوتي أحبتي، القرآن هو أكثر كتاب يُقرأ في العالم فهو يقرأ في المساجد وفي البيوت وفي المدارس والمعاهد والكتاتيب وفي الإذاعات والسيارات، بل وفي التلفاز والجوالات يقرأ كل يوم ملايين المرات ولا تخلو ساعة من نهار أو لحظة من ليل من تلاوة القرآن وتعلمه وتعليمه، وتفسيره وتجويده؛ بل حتى أعداء القرآن هم أنفسهم يقرؤونه من أجل التكذيب بما جاء فيه وكأن هذا إقامة لحجة الله عليهم ولكن ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦]، نعم ذلك ثابت للقرآن ولم يثبت لغيره،

فالحمد لله على نعمة الهداية إليه ونسأل الله أن يثبتنا على صراطه والاستمساك بأحكامه إنه ولي ذلك ومولاه.

فالقرآن أبقى المعجزات وأبهر الحجج والبينات فهو:

تنزيل رب العالمين ووحيه ... بشهادة الأحبار والرهبان
وكلام ربي لا يجئ بمثله ... أحدٌ ولو جمعت له الثقلان
وهو المصون من الأباطل كلها ... ومن الزيادة فيه والنقصان
من كان يزعم أن يباري نظمه ... ويراه مثل الشعر والهذيان
فليأت منه بسورة أو آية ... فإذا رأي النظمين يشتبهان
فلينفرد باسم الألوهية وليكن ... رب البرية وليقل سبحاني
فإذا تناقض نظمه فليلتبسن ... ثوب النقيصة صاغرًا بهوان
أو فليقر بأنه تنزيل مَنْ ... سَّماه في نص الكتاب مثاني
لا ريب فيه بأنه تنزيله ... وبداية التنزيل في رمضان
الله فصله وأحكم آيه ... وتلاه تنزيلاً بلا ألحان
هو قوله وكلامه وخطابه ... بفصاحة وبلاغة وبيان
هو حكمه هو علمه هو نوره ... وصراطه الهادي إلى الرضوان
جمع العلوم دقيقها وجليلها ... فيه يصول العالم الرباني
قَصص على خير البرية قصَّة ... ربِّي فأحسن أيما إحسان
وأبان فيه حلاله وحرامه ... ونهى عن الآثام والعصيان

حادي عشر- عظمة ما يدعو القرآن إليه:

القرآن هو حكم الله في خلقه وسبيل سعادتهم الأوحد في الدنيا والآخرة، القرآن يهدي لأقوم الطرق وأعدل الأحكام ما ترك خيرًا إلا دعا إليه وأمر به وما ترك شرًا إلا نهي عنه وحذر منه ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، ولم يرد في القرآن ما

يتناقض الفطرة السليمة والأخلاق القويمة والعقول الصحيحة. وما ورد في القرآن أبدًا شيء يستنكره ذوي العقول الراجحة السديدة.

ففي القرآن أمرٌ بالصدق: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]، وفي القرآن أمرٌ بالعدل والإحسان والنهي عن المنكر والفحشاء والبغي قال الله جَلَّ جَلَاله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

وفي القرآن أمرٌ بالإحسان إلى الوالدين وتوقيرهما والتوضع لهما وفيه نهى عن عقوق الوالدين والإساءة إليهما بقول أو بعمل قَالَ اللهُ تَعَالَى ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ٢٣ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾ [الإسراء: ٢٣- ٢٤].

وفي القرآن أمرٌ بالرحمة الشفقة والمودة والمحبة قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ﴾ [البلد: ١٧]. بل جعل الله عَزَّ وَجَلَ رسالة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كلها رحمة للخلق كافة قَالَ تَعَالَى ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] في القرآن أمرٌ بالاتحاد والاجتماع ونبذ الفرقة والإختلاف وبين ربنا سبحانه أن كثرة الاختلاف والتنازع تؤدي إلى ضعف القوة والفشل في تحقيق الأهداف المنشودة قَالَ اللهُ تَعَالَى ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: ١٠٣] ؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ﴾ [الأنفال: ٤٦] أي قوتكم.

وفي القرآن أمرٌ بالعبادات التي تطهر القلب وتزكي النفس ونهى عن المعاصي والسيئات التي تعمى القلوب وتحول الإنسان إلى حيونا في مسلاخ بشر تمسخ آدميته وتذهب مروءته.

فالصلاة صلة بين العبد وربه تزيد إيمانه وتقوي يقينه وتذهب من نفسه الحيرة والتردد والنكد والضيق والظلمة وتثبت في قلبه الاطمئنان والسكينة والسعادة؛ والزكاة تطهر النفس من البخل والشح وتعالج أمراضًا اجتماعية كالتحاسد والسرقة وذلك بأن يعطي الفقير من مال الأغنياء ما يكفيه عن السؤال والذلة للخلق.

وفي الصيام تقوية المراقبة لله وتحقيق التقوي في القلوب والشعور بجوع الجائعين وفقر المحتاجين.

وفي الحج تربية على الاستسلام لحكم الله والمسارعة لتنفيذ أمره وهجر البلاد والمأكولات والعادات تقربًا إلى الله جَلَّ جَلاله. ومن قبل ذلك كله أمر القرآن بتوحيد الله يصرف العبادات كلها إليه وحذر من الشرك وبين خطره وعاقبته وهذه أخطر وأهم وأعظم قضية في الوجود كله وبها أرسل كل الرسل وبعث كل الأنبياء ومن أجلها جاهدوا وصبروا قال الملك الحق جَلَّ جَلاله: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾[النحل: ٣٦]. هذه هي قضية كل نبي ومهمة كل رسول جاء من عند الله ألا وهي الأمر بتوحيد الله وعبادته وحده والنهي عن صرف أي عبادة من العبادات لغير الله جَلَّ جَلَاله.

وفي القرآن تحريم وتجريم كل السيئات والقبائح فقد حرم الله في كتابه الربا والزنا والظلم وقطع الطريق والكذب وفحش القول وغير ذلك من المنكرات التي أمر الله في كتابه باجتنابها والبعد عنها.

نعم لقد دعا القرآن إلى كل ما فيه خير أو صلاح في الدنيا والآخرة، وينهى عن كل سوء سفيه فساد الدنيا والآخرة، كل ما دعا إليه القرآن حق وعدل وحكمة ورحمة وكل ما نهى عنه القرآن ظلم وزور وباطل وضلال.

وفي القرآن قصص الأنبياء السابقين الذين أبقي الله ذكرهم أسوة للعالمين وقدوة للمهتدين وغير ذلك كثير من تعاليم القرآن المعصومة المحكمة الكاملة

وهكذاكان القرآن كاملًا ليس فيه ذرة خلل وليس فيه مجال لتعقيب أو تعديل وصدق ربي إذ يقول:﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩]. طالع القرآن ورتل القرآن ترى النبل والسامحة والعظمة والعصمة، والحق والصدق، والنور والهداية، والبلاغة والبيان، والحجة والبرهان، والتوحيد والاستقامة تجد كل خير وبر وحق وعدل وحكمة.

ثاني عشر- سهولة حفظه وفهمه:

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر: ٣٢]، أي سهلنا لفظه ويسَّرنا معناه لمن أراده ليتذكر الناس كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص: ٢٩] وقال تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴾ [مريم: ٩٧] قال مجاهد: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر: ٣٢]، يعني هونا قراءته وقال السُّدى: يسَّرنا تلاوته على الألسن. قال الضحاك عن ابن عباس: لولا أن الله يسَّره على لسان الآدميين ما استطاع أحدٌ من الخلق أن يتكلم بكلام الله عَزَّ وَجَلَ: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ أي فهل من متذكر بهذا القرآن الذي قد يسَّره الله حفظه ومعناه؟

وقال محمد بن كعب القرطبي: فهل من منزجر عن المعاصي؟ (١).

يقول إبراهيم خليل في كتابه لماذا أسلم صديقي: قلت له: هل يحفظ أحد في الدنيا الكتاب المقدس عن ظهر قلب؟قال: لا قلت: وهذا أمرٌ عجيب فهذا الكتاب المقدس الذي يؤمن به الملايين من البشر لا يوجد أحد على ظهر الأرض يحفظه في حين أنك تجد الملايين يحفظون القرآن ويستظهرونه عن ظهر قلب(٢).

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٦٧) ط: التوفيقية.

(٢) «لماذا أسلم صديقي؟» للدكتور/ إبراهيم خليل ص [١٣٥] ط: مكتبة التراث بالقاهرة.

وبعد،،

فهذه بعض دلائل عظمة القرآن ولو استقصينا لذكرنا ضعف ما ذكرنا ثم خفى علينا أكثر مما علمنا لأنه كلام الله عَزَّ وَجَلَ ولا يعلم مقدار عظمته وجلاله ووجوه ذلك كاملة إلا الله جل جلاله ولعل فيما ذكرنا كفاية لمن أراد الهدية وتذكرة لمن أراد التذكرة. ومن قال قولًا، بلا برهان فقوله ظاهر البطلان والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا به سبحانه وبحمده.